المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، محمد بن عبد الله ﷺ، الذي أرسله ربه ليخـرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم العزيز الحميد.

أما بعد

فإن كثيرا من المصائب والرزايا التي تقع على النـاس فتثقل كاهلهم حتى إنهم ما يـستطيعون لهـا احتمالاً، إذا تأملوها حق التأمل وجدوا فيها من فـضل الله وإحـسانه ورحمته ما تعجز الألفاظ عن التعبير عنه.

لقد فُوجئ المسلمون في مشارق الأرض ومغاربهـا بحفنة من الجهلة الحاقدين النصارى الذين أعمى الله بصيرتهم، وأعشى شعاع الحق الظاهر من دين الإسلام (الدين الـذي رضيه الله تعالى لعباده ولم يرض دينا سـواه) أبـصارهم، فذهب هؤلاء المنكوسون يفرغون حقـدهم وضـلالهم في

العيب والذم لرسول الله ﷺ الذي أرسله ربه ليخرج النـاس من الظلمات إلى النور.

لقد كانت فاجعة وأي فاجعة، ومصيبة وأي مصيبة، أن يتجرأ بعض النصارى على انتقاص أفضل رسول أرسـله الله تعالى إلى الناس، لكن الله جعل من ذلك فرصة عظيمـة للمسلمين لبيان حبهم لدينهم وشدة تمسكهم به، وتجديـد ولائهم له واعتزازهم به، وبذل الغالي والـنفس والنفـيس للذود عن حبيبهم ﷺ، الذي هداهم الله به، وأخرجهم بـه من الضلالات إلى الهدى.

كما كانت فرصة حقيقية توحد عليها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف أوطانهم وألـسنتهم وألوانهم، وأظهرت قوة الشعوب وأهمية إجماعها، وقـدرتها على المنازلة وإن كانت أيديها خالية من السلاح.

ومهما كتب الكاتبون ومدح المـادحون ونـافح المنافحون، فلن يستطيعوا أن يوفوه حقه اللائـق بـه ﷺ ،

ولكنها كلمات يسطرها قلم المسلم المحب لرسـول الله ﷺ؛ ليعبر بها عن بعض ما بداخله، وليؤدي جزءًا مما يجب عليـه نحوه، كيف لا وقد أخرجنا الله تعالى به من الظلمـات إلى النور وهدانا به الصراط المستقيم.

فمن أقل ما يجب علينا أن ننتهز هذه الفرصة لنعبـر عما يجيش بصدورنا تجاه هذا الرسول الكريم الذي لم تعرف له البشرية نظيرا أو مدانيا، ولنعبر عن بعض جوانب عظمته التي حباه الله تعالى بها.

قـد تجـد لبعض الناس جانبـا من جوانب العظمة أو جانبين أو أكثر، لكنك تجده في بقية الجوانب قد انحط إلى دركات يتعجب الإنسان منها.

وأما رسولنا ﷺ الكريم فجوانب العظمة فيه متكاملة، كل جانب قد استولى على الغاية منه، وهذا التكامل في حد ذاته جانب آخر من جوانب العظمة الـتي يحـار المـرء في تفسيرها، ولا يجد أمامه لكي يفسر هذه العظمة والتكامـل

فيها إلا أن يقول :إنه محمد رسول الله ﷺ، فهذا هو التفسير الذي يوضح الحقائق.

وما مثل الكاتبون ومثل سيرة الرسول ﷺ إلا كمثـل رجل دخل بستانا مثمرا من كل أنواع الثمار الـتي تحبـها النفوس وتشتهيها، وذلك وقت نضجها، فلم يدر من شدة حسنها وجمالها وتناسقها ماذا يأخذ وماذا يدع.

وفي الوريقات التالية أحاول أن أكتب ولو شيئًا يسيرا من سيرة الرسول الكريم على سبيل التذكير، وأسـتغفر الله تعالى من التقصير الذي لا ينفك عنه من يكتـب في سـيرة شخصية عظيمة، فكيف بمن يكتب عن أعظـم شخـصية عرفها التاريخ على الإطلاق.

وقد بين الحديث الغرض الذي لأجله بعثه الله تعالى، وهو دعوة الناس إلى الله تعالى، ومجانبة طريق الشرك والضلال، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، قال النووي في شرح الحديث :"إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، معناه :لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة، وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده، والصبر في الله تعالى وغير ذلك، وأبتلي بك من أرسلتك إليهم، فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعاته، ومن يتخلف ويتأبد بالعداوة والكفر، ومن ينافق"[1].

ولم ينس الرسول ﷺ-الذي كان العدل والإنصاف من شمائله الخُلُقية-أن يستثني من الشرك والضلالة طائفة من أهل الكتاب ظلت محافظة على عهد الله تعالى إليهم، فقال :"إلا بقايا من أهل الكتاب"، فالإسلام دين يحث

[1] المنهاج شرح النووي على صحيح مسلم ١٧ / ١٩٨

فأرسل إليه معاوية فسأله، فقال :سمعت رسول الله ﷺ يقول :من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء، فرجع معاوية "[1]

فما أحسن أثر دعوته على العالمين جميعا، وما أقـبح موقف الكافرين منه، الذين ناصبوه العداء وعاندوا دعوتـه، وآذوه هو ومن اتبعه، فبأبي هو وأمي ﷺ

[1] أخرجه الترمذي :كتاب السير رقم ١٠٥٦، وأبو داود كتاب الجهـاد رقـم ٣٣٧٨ وأحمد رقم ١٦٤٠١ وابن حبان في صحيحه ٢١٥/١١، وصححه الألباني

قبل الهجرة إلى المدينة، يقول سعد بن أبي وقاص رضـي الله تعالى عنه :لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجت من الليل أبول، فإذا أنا أسمع قعقعة شيء تحت بولي، فنظرت فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها، فرضضتها بين حجرين ثم استففتها، فشربت عليها من الماء فقويت عليهـا ثلاثا"[1]، "وكانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم (مـن المسلمين) السوق ليشتري شيئا من الطعام لعياله، فيقوم أبو لهب عدو الله، فيقول :يا معشر التجـار! :غـالوا علـى أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا، حتى يرجـع إلى أطفالـه وهـم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم بـه"[2] فما رده ذلك عن دعوته.

---

[1] سيرة ابن اسحق ١٧٣/١

[2] الروض الأنف ١٧٩/١

الشعوب، بل كان يدعوهم إلى الله تعالى لا إلى نفسه ولا إلى قومه، حتى كان العربي والعجمي في كنفه سواء وهو القائل في خطبته في وسط أيام التشريق (في اجتماع الناس في موسم الحج) :"يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا :بلغ رسولُ الله ﷺ ..."الحديث[1]

فهذا بلال الحبشي (من الحبشة) مؤذن الصلاة المسلمين بين يدي رسول الله، وهذا صهيب الرومي (من العرب) الذي ترك ماله لقريش حتى لا يمنعوه من الهجرة إلى رسول الله ﷺ فتلقاه الرسول ﷺ وهو يقول له :ربح البيع أبا يحيي، وهذا سلمان الفارسي (من الفرس) الذي أخذ

[1] مسند الإمام أحمد بن حنبل رقم ٢٢٣٩، وقال الشيخ الأرنؤوط :إسناده صحيح

الرسول ﷺ برأيه في حفر الخندق في مواجهة الكفار الـذين أرادوا غزو المدينة، فقد ألف الحق بينهم، ولم تفرق بينـهم اللغات أو القوميات أو الأوطان، وهذا لا تجده إلا في اتباع الرسالة الحقة.

جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى" [عبس :١-٣] "[١]، فما انصرف عنه الرسول ﷺ وعبس رغبة عنه أو استهانة به، وإنما حمله على ذلك رغبته في إسلام أولئك العظماء، ليعز بهم المسلمون، ومع ذلك فقد بلغها رسول الله ﷺ ولم يكتمها.

وكان لرسول الله ﷺ مولى اسمه زيد بن حارثة تبنـاه الرسول ﷺ قبل البعثة، وكانت عادة العرب أن زوجة الابن تحرم على الوالد ولو لم يكن ابنا للصلب وإنما كـان ابنـا بالتبني، وأراد الله تعالى أن يهدم هذا العرف الجاهلي، فلمـا طُلقت زينب بنت جحش زوجة زيد، شرع الله لرسوله ﷺ زواجها ليكون هو أول من يهدم هذا العرف الجاهلي، لكن هذا الأمر كان صعبا على تلك البيئة لتأصل تلـك العـادة فيهم، فأخفى ﷺ في نفسه هذه المشروعية، فقال الله تعالى له

[١] تفسير ابن كثير ٦٠٤/٤، وأخرج الترمذي هذه القصة من حديث عائشة كتاب التفسير رقم ٣٢٥٤ وقال :حديث حسن غريب

في شأن زينب بنت جحش وزوجها حارثة مولى الـنبي ﷺ :"وتخفِي فِي نفْسِك ما الله مبدِيهِ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه " [الأحزاب :٣٧] فبلغها ولم يكتمها، قـال أنـس رضي الله تعالى عنه :"جاء زيد بن حارثة يـشكو، فجعـل النبي ﷺ يقول :اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال أنـس :لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا لكتم هذه، قال :فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول :زوجكن أهالِيكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات "[1]، فالرسول ﷺ أمين على وحي الله تعالى، يبلغه كما أنزله الله عليه، لا يزيد فيه ولا ينقص منه.

وقد كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ في يوم موت ابنه إبراهيم عليه السلام، فقال المسلمون :انكـسفت الشمس لموت إبراهيم، فما كان من رسول الله ﷺ-بعد أن

[1] أخرجه البخاري كتاب التوحيد رقم٦٨٧٠

صلى صلاة الكسوف-إلا أن قام خطيبا في النـاس وقـال كلمة الحق :"إن الشمس والقـمر آيتـان من آيـات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي"[1]، وقد كانت البيئة يومئذ تقبل مثـل هذا التصور، لكن الرسول الأمين الذي لا ينطق عن الهوى، والذي علمه ربه كان يعلم أن هذا التصور غـير صـحيح، لذلك بادر بنفيه وبين أن الشمس والقمر آيتان من آيـات الله، وأنهما لا ينكسفان لمثل تلك الأسباب، وقد تبين للناس اليوم من خلال وسائل العلم الحديثة صحة ذلك، فمن الذي أعلم الرسول النبي الأمي بذلك غير وحي الله لـه؟، وقـد كانت أمانته في التبليغ، وحرصه على عدم خلـط الحـق بتصورات الناس، في وقت لا ينكشف فيه فساد هذا الخلط، دليل من أدلة نبوته وأنه مرسل من رب العالمين.

---

[1] أخرجه البخاري كتاب الجمعة رقـم ١٠٠٠، ومـسلم كتـاب الكـسوف رقم١٥٢٢

قال :فقلت يركع، قال :ثم افتتح سورة آل عمـران حـتى ختمها، قال :فقلت يركع، قال :ثم افتتح سـورة النـساء فقرأها، قال :ثم ركع، قال :فقال في ركوعه :سـبحان ربي العظيم، قال :وكان ركوعه بمنزلة قيامه، ثم سـجد فكـان سجوده مثل ركوعه، وقـال في سـجوده :سـبحان ربي الأعلى، قال :وكان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآيـة فيها عذاب تعوذ، وإذا مر بآية فيها تنزيـه لله عـز وجـل سبح"[1] ، ففيها كثرة القراءة وطول القيـام مـع الـدعاء والتضرع وسؤال الله تبارك وتعالى، إقرارا بالعبودية وعمـلا بمقتضاها.

وكان ﷺ يكثر طلب الهداية من الله تعالى وخاصـة في صـلاة الليـل قال أبو سلمة بن عبـد الـرحمن بـن

[1] أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين رقم١٢٩١، وأحمد رقم ٢٢١٢٥، واللفظ له، وقد حاول بعض المعاصرين أن يقتدي بالرسول ﷺ في ذلك فصلى، فبلغـت صلاته نحو أربع ساعات ونصف

عوف :سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت :كان إذا قام من الليل افتتح صلاته :اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فـاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بـين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"[1].

لقد كان من أثر الوضوح الشديد في عبودية الرسول ﷺ لله رب العالمين، التي أكدها ووضحها بقولـه وفعلـه وتصرفاته، أن أمته من بعده لم تغلُ فيه كما غلـت الأمـم السابقة في أنبيائهم، فالمسلمون يعلمون أن محمدا ﷺ عبد الله ورسولٌ منه إلى الناس جميعا، فلم يطروه أو يغلوا فيه، بـل عظموه التعظيم اللائق برسول رب العالمين

[1] أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين رقم ١٢٨٩

ولم تقم لهم بعد قائمة مصداقا لقوله ﷺ :"إذا هلك قيـصر فلا قيصر بعده"، فقد حدث أبو هريرة وجابر بـن سمـرة رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال"إذا هلـك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله"[1].

إن مما نلحظه في أيامنا هذه وفي دورات التاريخ الـتي سبقت أن الحكام والقادة-الذين يتعاقبون على حكم البلاد- يقدح اللاحق في السابق، ويبين عيوبه وأخطاءه، أو أن يغير في كثير مما اخترعه السابق من الأنظمة والأحكام، ويـأتي بالبديل منها، لكن القرن الذين رباهم النبي ﷺ كانوا أوفياء له فلم يوجد من أحد منهم غير التوقير والتعظيم والإجلال، فلا نقد ولا اعتراض، ولا تغيير لشيء قال به أو عمله، بـل كان كل قائد يأتي بعده من أصحابه يحرص حرصا شـديدا

[1] أخرجه البخاري كتاب فرض الخمس رقم ٢٨٨٨، ومسلم كتاب الفتن رقم ٥١٩٧

على الثبات على ما تركهم عليه، ويعد الخروج على ذلك أو مخالفته من الضلال والزيغ فشتان بين ما نلحظ من القادة الآخرين وخلفائهم، وبين الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين .

عن أبي وائل قال :"جلست إلى شيبة في هذا المسجد، قال :جلس إلي عمر في مجلسك هذا، فقال :هممت أن لا أدع فيها صفراءَ ولا بيضاءَ إلا قسمتها بين المسلمين، قلت :ما أنت بفاعل، قال :لم ؟ قلت :لم يفعله صاحباك قال :هما المَرآن يقتدي بهما"[1] فهذا شيبة رضي الله تعالى عنه حاجب الكعبة لما أراد عمر رضي الله تعالى عنه وهو أمير المؤمنين أن يقسم الذهب والفضة التي كانت في الكعبة، قال له بكل ثقة وثبات :ما أنت بفاعل، فاستفهم منه عمر عن سبب اعتراضه، فبين له أن من سبقك أبا بكر ومن قبله رسول الله ﷺ لم يفعلا الذي تريد فعله، فلم يلك من عمر غير

[1] أخرجه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة رقم٦٧٣٣

الاستجابة والقبول، ويقول :هما المرآن يقتدي بهما، قال ابن حجر :"قال ابن بطال :أراد عمر قسمة المـال في مـصالح المسلمين، فلما ذكره شيبة أن النبي ﷺ وأبا بكـر بعـده لم يتعرضا له، لم يسعه خلافهمـا، ورأى أن الاقتـداء بهمـا واجب، قلت :وتمامه أن تقرير النبي ﷺ منزل منزلة حكمـه باستمرار ما ترك تغييره، فيجب الاقتداء به في ذلك لعمـوم قوله تعالى :واتبعوه"[1] ، وقد كان من رأي عمر رضي الله تعالى عنه أن الحجر الأسود لا يضر ولا ينفع، ومن ثَم فـلا فائدة في تقبيله، لكنه لما رأى رسول الله ﷺ يقبلُه لم تـسعه المخالفة وقبله، فعنه رضي الله تعالى عنه أنه جاء إلى الحجـر الأسود فقبله، فقال :إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك"[2]

---

[1] فتح الباري ١٣/ ٢٥٢

[2] أخرجه البخاري كتاب الحج رقم ١٤٩٤

أهل مكة الذين اضطروه للخروج؛ انتقاما منهم لما لقيه من أهل الطائف بسببهم، وذلك شفقة منه عليهم ولأنه كـان يأمل أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، فعـن عائـشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت للنبي ﷺ :"هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال :لقد لقيت من قومك ما لقيـت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلـم يجـبني إلى مـا أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقَرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال :إن الله قد سمع قول قومـك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال :يـا محمد، فقال :ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبـق علـيهم

الأخشبين ؟ فقال النبي ﷺ :بل أرجو أن يخـرج الله مـن أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا"[١].

وكان ﷺ يرحم الصبية الصغار ويقَبلـهم، فعـن أبي هريرة رضي الله عنه قال :"قبل رسول الله ﷺ الحسن بـن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالـسا، فقـال الأقرع :إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فنظـر إليه رسول الله ﷺ ثم قال :من لا يرحم لا يرحم"[٢] ، ودعا أمته إلى رحمة الخلق جميعهم-جميع من في الأرض- من يعقل كالإنس ومن لا يعقل كالحيوانـات، فقـال :"الراحمـون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يـرحمكم مـن في

[١] أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق رقم ٢٩٩٢، ومسلم كتاب الجهاد رقـم ٣٣٥٢، والأخشبان جبلان بمكة هما أبو قبيس والذي يقابله وكأنه قُعيقعان ، وسميا بذلك لصلابتهما، والمراد بإطباقهما أن يلتقيا على من بمكـة، فيكـون في ذلـك هلاكهم

[٢] أخرجه البخاري كتاب الأدب رقم٥٥٣٨، ومسلم كتـاب الفـضائل رقـم ٤٢٨٢

السماء، الرحِم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصـله الله، ومن قطعها قطعه الله "[١].

وكان ﷺ يدخل في الصلاة يريد إطالتها فـإذا سمـع بكاء الصبي وهو في صلاته خفف منها رحمة بأمه لما يعلـم من وجدها عليه، فيقول ﷺ :"إني لأدخل في الصلاة وأنـا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلـم من شدة وجد أمه من بكائه"[٢].

ولم تقتصر رحمته على الإنسان، بل قد شملت رحمته ﷺ حتى الحيوانات، فعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيـه قال :"كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفْرِش، فجاء النبي ﷺ فقال :من فَجع هذه بولـدها ردوا ولدها إليها، ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال :من حـرق

[١] أخرجه الترمذي كتاب البر والصلة رقم ١٨٤٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود كتاب الأدب رقم ٤٢٩٠

[٢] أخرجه البخاري كتاب الأذان رقم ٦٦٨ ومسلم كتاب الصلاة رقم ٧٢٣

هذه؟ قلنا :نحن، قال :إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار"[١] ، فالنبي ﷺ يرق لحال هذا الطائر الذي فقد ولديه، ويرحمه ويأمر من أخذهما بإطلاقهما، مـع أن صـيد الـبر حلال-لمن لم يكن محرما- لكن الرحمة التي ملأت جـوانح الرسول الكريم ﷺ لم يقدر معها على رؤية هـذا الطـائر المسكين المفجوع في ولده، حتى أمر بإطلاقه.

وها هو ذا ﷺ يدعو إلى رحمة كل مـا فيـه روح، ويحث على ذلك ببيان ما فيه من الأجر فيقول :"بينا رجـل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خـرج، فإذا هو بكلب يلْهث يأكل الثرى من العطش، فقال :لقـد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بِفِيه ثم رقِي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا :يا رسـول الله وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال :في كل كبد رطبة أجر"[٢].

---

[١] أخرجه أبو داود كتاب الجهاد رقم ٣٣٠٠

[٢] أخرجه البخاري كتاب المساقاة رقم ٢١٩٠ ومسلم كتاب السلام رقم ٤١٦٢